

الغابرة والأوقات الحاضرة وكذلك أكثر حكومات الغربيين في الدهور
الماضية ومنها أيضاً الحكومة الانكليزية الآن في البلاد الهندية
(لها بقية)

(المنار) ظفرتنا هذه المقالة في صحيفة عاث فيها العث (الأرضة)
فذهب بكلمات قليلة منها لم تحل بالمعنى وان نقصت بعض الفائدة فيها
ما تركناه له أيضاً ليكتب فيه الساقط من يظفر به من القراء ومنها ما
وضعناه له كلمة يدل عليها المعنى ككلمة (صرة) قبل لفظ الشتاء .

باب التوسل والتعلم

﴿ الباب الثاني (الولد) من كتاب اميل القرن التاسع عشر ﴾

من اراسم الى هيلانة في ١١ يونيه سنة - ١٨٥

فقد قطع مكتوبك ولله الحمد جميع العقبات التي كانت تحول بينه وبين
الوصول الى وهو الآن بين يدي اري فيه شعاعاً من شمس الحرية . قد
اتصل بي وها أنا ذا الاحظك بفكرى في تزهاك على شاطئ البحر وابصر
« اميل » من خلال ما تبدينه من ضروب التأثر والانفعال واخالني اعرفه .
وباه كيف اكون والداً من سنتين كاملتين ولا اتمكن من تقبيل
ولدي الى الآن :

أترك هذا الاسف الذي لا جدوى له واعاود الحديث معك فيما
ينبغي ان يكون اهم ما يعنيننا في هذه الدنيا فاقول : ان من اغلاط المشتغلين

بالتربية صرفهم جل عنايتهم في تقويم القوى والملايكات العقلية وقلة التفاتهم الى غيرها مع انه لا يسمهم انكار ما بينها وبين قوى الادراك الحسية والنفسية من الارتباط ولكنى في هذا المكتوب احب أن أوجه فكري الى تربية الادراك العقلي بنوع خاص .

كأني بك تقولين هل يتفكر الطفل ؟ فأجيبك ان ذلك لازم له لأنه حيّ ولأن العلم اذا كان كلباً نفذ في اسرار حياة النباتات والحيوانات كشف لنا فيها بداية احساس بل ربما صح ان يقال بداية ادراك فكيف يكون الطفل حينئذ اقل حظاً من هذه الكائنات التي هي اضعف خلق الله تعالى ؟ نعم انى لا انكر ان مخه في الاسابيع الاولى من ولادته يكون في نظرها كالبهائم المظلمة التي وصفها الشاعر اللاتيني بأنها مملكة الغفارىت ولكنه يتدرج في تمييز بعض الاشياء بعضها من بعض والقياس بينها وانتزاع بعض الاحكام عليها وانك لا تكادين تجدين طفلاً في الشهر الخامس عشر او السادس عشر من عمره اذا رأى صورة انسان الا وهو يفكر بانها لشخص معروف .

من الاسباب التي تعين على إغناء عقل الطفل بعد تربيته بما يحتمل به من الاشياء تعليمه اللسان .

وانى ارجح ما تقولينه من ان الانسان في عهد طفوليته كان يتلمس مواد الكلام الاولى في اصوات الكون المحيط به وقد يدلنا على ان هذه الاصوات هي اصل اللغات الانسانية ما نجده في جميعها خصوصاً ما كان منها قديماً جداً من آثار التوافق الناشئ عن التقليد وما اجلّ واعظم كلام الانسان فمن العبث أن ارضي نفسى بقولى : ان اسلافنا الغابرين قد جمعوا

في بداية نشأتهم الاصوات المهمة المنتشرة في جميع ارجاء الكون
وصيروها لغة فان هذا القول لا يكشف لي جميع ما في كلام الانسان من
المعاني لانك تجدين لكل شيء في هذا العالم كلاماً فالمدن يتكلم لانه اذا
نُقر صوت تصويماً يخبر بماهيته نجاساً كان او ذهباً والحيوان يتكلم لانه
يدل في كل حين بما يديه في صوته من الكيفيات المختلفة على حاجاته
ووجداناته وشهواته والهواء والبحر والرعد تتكلم لان الاهاطها تنبئ عما
يقع بين الفواعل الكونية من الكفاح والمغالبة ولكن شتان بين كلام هذه
المخلوقات جميعها وكلام الانسان ولو كان طفلاً فان الطفل متى قدر على
النطق ببعض الكلمات ولو مع التلمثم فيها واستطاع مثلاً ان يقول «أنا»
مشتباً بذلك استقلال الانسان وقيام الحياة العامة به رأيت ان جميع ما في
الكون امامه قد دخل في شبه عبودية وخضوع .

ان اصوات المادة معلولة للحوادث التي توجد بها واصوات الحيوانات
ناشئة عن الفراز المستقرة في انواعها وأما لفظ الانسان فهو حتى في حال
تمتة الطفولية دال على ذات شأنها الحرية والاستقلال .

على انه لا ينبغي ان نسمى عن الفائدة الحقيقية من اساليب الكلام
من حيث كونه ركناً من اركان تربية الادراك . ذلك لان الطفل لا يتلقى
عنا وقت الكلام معه الا اصواتاً فمن اجل ان يكون تعليمنا مفيداً له يجب
ان تكون هذه الاصوات التي يسمها مقرونة في نفسه بمدلولاتها :

انت تذكرين تلك الفتاة التي جاءت بها الى والدتها في يوم من
الايام تستفتيني في امرها فقد كانت شبيهة بتلك المغارات المقفورة تردد
جميع الاصوات غير فاهمة شيئاً منها وكنت اعتقد انها لجمالها الرائع لو كانت

شهدت قدماء اليونان لا تحذوها إلهة لصدى الاصوات لانها تفرط ما
أوتيته من قوة السمع الميوس من تمديها وغمريزة التقليد المتعاصية على
الترويض كانت على الدوام ترجع ما كنت أوجهه اليها من الأسئلة بدون
ان تجيب عن شيء منها وقد عاجلتها بجميع طرق الملاج النفسية فلم يفدها
ذلك شيئاً .

فأنا أخشى كثيراً ان لا يوجد بين هذه البلهاء المسكينه التي لا تفهم
شيئاً مما ترده من الكلام وبين كثير من الاطفال الذين يرددونه على قلة
فهم اياه او على فهمه مقولاً الا فرق خفيف

على انى ارى ان الميل الى التكلم بغير فائدة مرض من امراض
العقل عند الانسان فكم من النساء من يجتهدن في امارة ما يجندنه من الخبج
والسامة بأغاني ليس فيها شيء من المعاني المعينة ولقد عرفت مسجوناً كان
على قصور ادراكه جداً كلما وضع في السجن المظلم عقاباً له على ما كان
يتركبه من الذنوب يجتهد في مخادعة العزلة والظلام باحاديث خالية
من المعاني .

وانه يوجد في الشعائر الدينية القديمة لكثير من الاعم صيغ من
المزامم والتماويذ هي عبارة عن كلمات او جمل مرتبة تتند بسامعها الاذن
ولكن لو اراد سامعها البحث عن معانيها لكان محاولاً عبثاً . وما لنا
والرجوع الى تلك الازمان الغابرة نستشهد بما كان فيها على ما نقول وأماننا
كنائسنا الكاثوليكية نسمع المؤمنين يدعون الله فيها بأدعية لاينية لا يفهم
معانيها الا النزر القليل منهم .

ولكن ارى ان عدم صرف اللسان عن هذه الوجهة الفاسدة واعانتة

على الجري في مضمارها من الامور الشديدة الخطر على العقل فاذا لم يحترس منها اصبحت الالفاظ خلواً من معانيها وصارت عوذاً للعقل .

الطفل فيه شيء من خاصية البيغاء ولا وجه للشكوى من ذلك فانه بهذه القوة التقليدية يتيسر له الاختلاط بمن حوله ومعاشرتهم ولكن حل عقدة لسانه ايسر من فتح مغلق عقله فليست الالفاظ تؤدي دائماً الى فهم الاشياء التي وضعت لها وانى لأرى في لغة الحرس مزية لا توجد في لغتنا معاشر الناطقين ذلك لان الاشارات عندهم هي رسوم للمعاني والوقائع وليس الامر كذلك في النطق الذي هو عبارة عن اصوات متنوعة واجراس مختلفة كما يعلمه كل منا . ثم اعلي ان محادثة الاطفال مما لا شك في فائدته فانها من دواعي ابتهاجهم وانشراح صدورهم ولكن على شرط ان تكون الكلمات وسيلة الى انتقال اذهانهم الى مدلولاتها فيجب عند تلقينهم للدوال اللفظية ان يذهبوا الى ما يدل عليه ويفهموا ما بين الدال والمدلول من الارتباط فهذه الطريقة تعود اذهانهم على الاستقرار وعدم التشتت .

لست ادري لما ذاهب كثيرهم كثيراً بمقاومة ما يجده الاطفال من اللذة في تقليد اصوات بعض الحيوانات فما اسعد حظ اصري يكون فيه من المواهب الالهية ما يؤهله لفهم جميع ما يعيش على وجه البسيطة . لا اقصد بقولي هذا ان من يحاول محاكاة اصوات بعض الحيوانات يفهم معنى لسانها ولكني أريد به ان مثل هذا السعي في التقليد يدل على ان صاحبه قد وصل الى درجة ما من النظر والملاحظة فالطفل الذي يحاول تقليد صوت الكلب او الديك مثلاً قد لاحظ ان في هذا العالم مخلوقات اخرى

غيره وان لها في التمييز عما في انفسها من الوجدانات طريقة خاصة بها .
 اللغة الانسانية وان كانت وضعية فأصولها على التحقيق فطرية .
 انظرني الى الاطفال تجدي لهم لغة معروفة في جميع اقطار الارض وهي
 وان اختلفت يسيراً من أمة الى اخرى تتألف في الاصل من اصوات
 آحادية المقاطع فأصول الكلام المفروض عند جميع الامم لا يخرج عن حرف
 ساكن وحرف لين يتكرران بحركة الشفتين مثل « بابا ماما تاتا دادا »
 وغيرها ما عدا بعض تنويجات خفيفة والطفل يقضى من دور طفوليته
 زمناً طويلاً لا يعرف فيه اداة التعريف ولا الضمير وأما الفعل فلا يدرك
 منه الا المصدر ولا ينفذ ذهنه الى فهم صيغ الماضي والمضارع والامر
 وغيرها من المشتقات ولا يعرف من النعوت الا قليلاً وأقل منه معرفته
 بحروف العطف فلغته شبيهة بلغات الاجيال الاولى .

وقد روى لنا احد السياح أنه يوجد في افريقيا قبيلة يتألف لسانها
 من اثني عشرة كلمة لا غير وقال ان افراد هذه القبيلة على قلة الفاظ لغتهم
 الى هذا الحد يتفاهمون جيداً فيما بينهم باضافة الاشارات الى الاصوات
 وهم يوجد من الاطفال من يفهمون امهاتهم ما يريدونه بما هو اقل من
 كلمات تلك اللغة مثل تحريك العين او الاشارة او ما لا يكاد يكون
 شيئاً يذكر مع افصاحه عن افكارهم واظهاره لمقاصدهم .

وهناك ام اخرى تكاد تكون امية ولكنها تبرز علينا في علم ربط الوقائع
 بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها فالعرب القاطنون فيما بين النهرين
 (الدجلة والفرات) لا يكادون يقرأون شيئاً من الكتب لأنه لا مدرسة
 لهم سوى الصحراء ولكن من المحقق ان البدوي منهم اذا رأى آثار الخطأ

على الرمل حكم فوراً أن كانت آثار انسان أو حيوان وأن كان انساناً صرف
قبيلته وكونه عدواً أو صديقاً وقدر تاريخ سروره سواء كان قديماً أو حديثاً
واستتبع ما ذا عسى أن يكون قصده من سفره وحكم أيضاً ببعض
علامات يراها منتشرة في الطريق أن كان البعير حاملاً شيئاً أو خالياً
شباناً أو جائعاً مستجماً القوي أو مهزولاً وأن كان صاحبه من سكان الحضر
أو البدو . فإذا تأملنا قليلاً في سبب وجود هذه المعرفة عند هؤلاء القوم
ظهر لنا أن طريقة البدوي في ربط الوقائع بعضها ببعض واتزان الأحكام
منها هي بعينها الطريقة المعروفة في العلوم الصحيحة .

من الجلي أن احداً لا يسه انكار اهمية اللغات وما لها من الفوائد
في تربية عقل الانسان ولكن مما يبنى الاعتراف به ان الالفاظ اذا كانت
تعني من النظر في الاشياء وملاحظتها كما هو الشأن فيها غالباً فهي مضرّة
بالادراك لا مفيدة له فالطفل وان قدر على تسمية الفرس بخمس لغات
مختلفة لا يعرف في نهاية الأمر الا حيواناً واحداً فلو اتفق انه لم يره في
حياته كان لم يعرف شيئاً .

اراك تذكرين ما اشهر عندها ملت^(١) من تعجبه من تشبث
الناس بالألفاظ حين قال : ه الفاظ الفاظ الفاظ ه فهذا الامير كان درس
في المدارس وكأنه بهذا الاستغراب يتفقد طريقتنا في التربية فان المشتغلين
بهذه الطريقة يوجبون على الطفل من اجل كمال تربيته ان يحفظ افكار
غيره ويرددها مع ان الواجب عليهم ان يسألوه دائماً عن افكاره

(١) (ها ملت) امير شبه جزيرة الدنيمارك المسماة جوتلاندي تظاهر بالجنون

ليأخذ بثأر ابيه الذي قتله اخوه

ويبادرونه بالحث على النظر في الوقائع والقياس بينها وتمرين نفسه على الحكم عليها . قد رأيت فيما سبق ان العمل هو اللازم في تربية المواطف الفاضلة وضروب الوجدان الشريفة فكان الواجب على الرين ان يكون مرجعهم هنا ايضاً الى العمل لاحياء جرثومة الادراك في الطفل وتلقيحها لنتيج الثمرات المطلوبة . اهـ .